آدم وحواء وابليس فى القرآن الكريم

للدكتور حسين مؤنس

عندما كنا صغاراً كنا نتعلم فى الكتاب القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ونحفظ شيئاً من القرآن الكريم ، ومنا من كان يحفظ المصحف كله ، وكان القرآن أعظم ما نتعلمه لأنه كتاب الله أولا وقاعدة الإسلام ثانياً ، ثم إنه كان أساس تعلمنا البلاغة ثالثا؛ والبلاغة يتعلمها الإنسان لأنها خصلة لابد أن يولد بها بها صاحبها ولكن القرآن الكريم يجودها ويصقلها فتستقيم بلاغة البليغ بفضل القرآن الكريم ، ويستقر فى سمعه الوقع القرآنى العظيم . كنا نجد فى كتابات بلغاء الماضى من أمثال : الجاحظ وابن المقفع وابن عبد الحميد من القدماء ومصطفى صادق الرافعى وطه حسين ومصطفى لطفى المنفلوطى من المحدثين ، ونستطيع أن نقول : إن العامل الأكبر من بلاغة الكتاب فى عصر العباقرة الذى نعيش اليوم فى أعقابه يرجع إلى القرآن الكريم وماله من أثر بالغ العمق والشمول على قلوب الناس وعقولهم .

وشبابنا اليوم — وخلال العشرين سنة الماضية — يفقد هذه الصلة بالقرآن الكريم ، لأن الكتاتيب عصرها قد انقضى ، وأصبح الأولاد لا يتعلمون القرآن فى المرحلة السابقة على المدرسة الابتدائية وهى التى تسمى الكندرجارتى ثم المدارس الابتدائية فالإعدادية وقد هبط مستوى اهتمام وزارات التربية والتعليم إلى درجة جعلت الوزارات تخصص له ساعة واحدة فى الأسبوع تتركز الدراسة فيها على مادة الدين يحفظ فيها التلاميذ بضع آيات فى القرآن الكريم حفظاً سطحياً عابراً ، وفى الغالب نجد أن الذين يقررون المواد يسيئون اختيار الآيات التى يحفظها الطلاب ، فيقررون على التلاميذ مثلا آيات الميراث أو بعض الآيات من سور القرآن القصيرة العسيرة الحفظ والتى تحتاج

(*) ألقى فى الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

إلى شرح كثير ؛ والنتيجة أن التلميذ يبغض تلك الآيات ويحفظها قسراً عنه ولا يكاد ينتهى الامتحان حتى ينساها وينقطع الأمل فى أن يجيد العربية أو يحصل على ذلك الرنين القرآنى البديع فى أذنيه، وهذا هو السبب فى هبوط مستوى علم الشباب — بل الكهول — فى أيامنا فى اللغة العربية. ومن الغريب أن اهتمام الناس بالإنجليزية فى بلادنا يزيد على اهتمامهم باللغة العربية ، وأمر مدارس اللغات معروف حيث ينفق أولياء الأمور الألوف على أبنائهم فى التعليم فيها على أمل إتقان اللغة الإنجليزية مع إهمال يكاد يكون تاماً للغة العربية التى يكتفون بالقدر اليسير منها، والنتيجة أننا نجد أنفسنا فى أزمة اللغة العربية الراهنة ، فنحن لا نكاد نجد إنساناً دون الخمسين يتقنها لا نطقاً أو كتابة ، ويكفى أن نقرأ الصحف حتى نتأكد من تلك الظاهرة المحزنة لكل عربى . كذلك نحن لا نظفر بين المذيعين أو المتحدثين فى الإذاعة والتليفزيون من يقرأ جملة واحدة دون أن يقع فى أخطاء بلا نهاية فى اللغة العربية وأذكّر القارئ بإعلان تلقيه إحدى مذيعات التليفزيون عن مكتبات الأطفال ، والإعلان كله أربعة سطور ولكن المذيعة تقع فى تسعة أخطاء نحوية وهى تقرأه .

* * *

وكان هذا الضعف المتزايد للغة العربية فى عصرنا هذا من أكبر ما يشغل بالى خلال السنوات الأخيرة لشدة حرصى على اللغة العربية ورغبتى فى تقوية الصلة بين الشباب والقرآن الكريم وزيادة مكان كتاب الله فى التعليم لأن القرآن الكريم هو السبيل الوحيد لتقويم لسان الصبى فى اللغة العربية وإرهاف سمعة للغة حتى يعتاد أن يقرأها صحيحة دون جهد ، لأن النطق الصحيح باللغة العربية يتربى فى السمع أولا فيشب الإنسان وقد تعودت أذنه الحركة الصحيحة لأواخر الكلمات ما بين رفع وجر ونصب وسكون ، ونحن أنفسنا نعرف ذلك فقد جربناه فى حياتنا وتجربتنا ، وإذا كنا قد نسينا معظم ما حفظنا من القرآن فى الصغر فقد بقى فى آذاننا الجرس الجميل والوزن الصحيح ، بل إن محتويات الكتاب الكريم بقيت فى أذهاننا ، والواحد منا يعرف ما هو من القرآن وما ليس منه ، وبالاستعانة بمعاجم القرآن ما بين لفظية ومعنوية لا يصعب علينا أن نجد أى آية من آيات القرآن إذا طلبناها ، ونحن لا نستغنى عن القرآن الكريم فى كل ما نقوم به من بحث ودراسة ، لأن الواقع إن حفظنا القرآن الكريم ونحن صغار أصبح جزءاً أساسياً من تفكيرنا . حتى الذين يتقنون لغات غير العربية منا يحسون أن الفضل فى ذلك يرجع إلى القرآن الكريم الذى أنشأنا على النطق العربى الصحيح والإحساس ببلاغة العربية ، ومن أتقن لغة أتقن غيرها إذا أراد ومضى يدرسها .

وقد كنت فكرت فى أساليب لتقريب القرآن الكريم إلى أذهان الشباب وقلوبهم ، وأعددت محاضرة فى هذا الموضوع وألقيتها فى الجامعة الأزهرية فى قاعة محمدعبده وقلت فيها : إننا ينبغى أن نختار من القرآن للتدريس للشباب فقرات قصصية كما نرى فى قصص الأنبياء والآيات العلمية ، كما نرى فى سورة الرعد والآيات التاريخية كما نرى فى سورتى الأنفال والأحزاب أو الآيات التصويرية ،أى ذات البلاغة التصويرية كما نجد فى سورة النور أو السور التى تصف المجتمع وما فيه والمصاعب التى يواجهها الإنسان فى المجتمع وكيف يحلها بالصبر وطول البال والحسنى كما نجد فى سورة التوبة . وأذكر أننى قلت فى نفس المحاضرة : إننا ينبغى أن ندرس القرآن للتلاميذ على أساس السورة لا الآيات المقتطفة من السورة ، وليس معنى ذلك أن يحفظ التلميذ السورة كلها ، بل معناه أن نعطى التلميذ فكرة عن السورة التى نختارها ثم نبين له الموضوعات التى تتناولها لأن كل سورة من سور القرآن الكريم تتناول — موضوعات متعددة ولكن السورة كلها لها وحدة وشخصية واحدة ، ثم نختار للتلميذ آيات من موضوع من موضوعات السيرة ونأخذها ونقدمها للتلميذ ليحفظها مع الشرح والتعليق .

* * *

وقد ظل موضوع تقريب القرآن الكريم من نفوس الصبيان والشباب يشغل بالى حرصا على تربية الشباب تربية إسلامية عربية صحيحة حتى قرأت أخيرا الجزء الأول من سفر التكوين لبعض أبحاثى فاستوقف نظرى أن الإصحاحات التى قرأتها تحكى قصة الخلق ثم خلق آدم ، ولاحظت أنها تروى ذلك رواية بسيطة ذات طابع هو أقرب إلى ما نقرأه فى أدب الأطفال وأنالم أرجع إلى الطبعة العربية القبطية من الكتاب المقدس بل الطبعة الدولية التى أقرتها المجامع الدينية المسيحية سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وهى الطبعة المعروفة باسم المنشقة Emoardant التى تأتى بالنص وتقارنه بما فى طبعات المقدس الأخرى وتشير إلى التشابه بين المواضع فى الطبعات المختلفة فى الهوامش فاذا قرأ الإنسان فقرة عن خلق آدم مثلا وجد فى الهامش كل مواضع الخلاف والتشابه بين النص الذى يقرأ ونصوص الكتاب المقدس الأخرى . ومن المعروف الكتاب المقدس المسيحى يتكون من قسمين يسميان العهدين Teatamants فالعهد القديم يتناول كل ما روى فى الكتب المختلفة عن الخلق وبداية تجارب الانسان ثم تلى ذلك مرتبة ترتيبا زمنيا وأخبار أنباء بنى إسرائيل أو اليهود وما يروى عنهم وما أثر من كلامهم وكل ذلك مروى بروايات الناس أى أنه

ليس بكلام الله سبحانه وتعالى كما هو الحال عندنا فى القرآن الكريم . بل هو أشبه بما نسميه نحن بالآثار أى أخبار الأنبياء الماضين وما نروى نحن محمد صلى الله عليه وسلم من الأحاديث والأخبار مما يسمى فى مجموعه بالسنن أو الأحاديث أو الصحاح أو المسانيد . والأجزاء الخمسة الأولى من العهد القديم يقال أنها الكتب الخمسة الأولى من التوراة وتتضمن أخبار الخلق والأنبياء إلى موسى عليه السلام . ولهذا فانها تسمى بالكتب الخمسة pentateuch أو كتب موسى عليه السلام ثم تلى ذلك بقية الإصحاحات وهو تقريب للفظ عبرانى هو الصحاح ويراد به الصحيح الذى يوثق فيه . وهذا العهد القديم كله يعتبر وعدا من الله سبحانه بالغفران للانسان عندما يرسل النبى المخلص للانسان من خطيئته التى وقع فيها عندما عصى الله سبحانه وأكل من الشجرة فعاقبه الله بالاخراج من الجنة ولكنه بحسب ما يقال فى المسيحية لم يغفر له أى إنه هبط إلى الأرض ملعونا ويقولون إنه عندما جاء المسيح عليه السلام خلص من آمن به بالمسح على رأسه بالزيت وهم يسمون ذلك بالساكرامنت ونتيجة ذلك هى الخلاص من لعنة الله salvation . وبعد وفاة المسيح انتقل حق التخليص المقدس أو الساكرامنت إلى الحواريين الذين أنشأوا الكنيسة وهى فى الأصل جماعة المؤمنين ، ثم أطلق ذلك اللفظ على المبنى الذى يضم المؤمنين . ثم جاء الحوارى بولس Paulus وهو الذى استبد بأمر المسيحية وخاصم برنبا وعددا من الحواريين الآخرين ومنهم مرقس منشئ الكنيسة القبطية المصرية . وبولس هو الذى أنشأ الكنيسة التى سماها الجامعة Eatalica وهى أصل الكنيسة الكاثوليكية أما مرقس فقد أنشأ الكنيسة المستقيمة Orthosdox . وقد انقسمت كل منهما إلى كنائس مختلفة بعد ذلك . ولكن بولس هو الذى وضع ما يعتقدون أنه أصول المسيحية مثل الإيمان بالثالوث وضرورة تخلص الإنسان من الخطيئة الأولى على يد رئيس الكنيسة الكاثوليكية الذى يسموته البابا أو من يعينه هذا من كبار القساوسة كالكرادلة والأساقفة أو صغارهم وهم الرعاة pastors الذين يسمون أيضا بالآباء fathers أو رعاة prastors

أما العهد الجديد فهو الإنجيل ، والإنجيل عند النصارى هو ما يذكرونه من أقوال عيسى ابن مريم عليه السلام وأعماله ومعظمها يتعلق بالشهور أو الأسابيع الأخيرة من حياته منذ انفصاله عن كنيسة بنى اسرائيل وتعميده نبيا على يد يوحنا المعمد أو المعمدان إلى موته شهيداً على الصليب فى رأيهم على يد اليهود ، وكانت هناك أناجيل كثيرة ولكن المجامع الكنسية أقرت منها أربعا ، وهى أناجيل يوحنا ومرقص ومتى ولوقا ، وهى تنشر فى العادة فى كتاب واحد يلى بعضها بعضا

لأنها قصيرة. النصوص متشابهة الفقرات وهم يقولون : إن هذا العهد الجديد هو خلاص الإنسان من الخطيئة أو من قرأه وآمن بما جاء فيه عمده القس أى أدخله جماعة الكنيسة وأصبح عضوا من أعضائها

أما الحوارى بولص — وتاريخه ومكانه فى المسيحية عظيمان جدا . وليس له إنجيل ولكن له فى « العهد الجديد » بعد الإنجيل رسائل يعتبرونها من أسس المسيحية ، والحقيقة أن هذا الرجل الذى كان قويا جدا وبالغ الذكاء والنشاط هو الذى فصل المسيحية عن اليهودة وجعلها دينا مستقلا وهذا واضح فى خطاباته تلك وهى :

— خطابه إلى أهل مدينة روما
— خطابه الأول إلى أهل كورنثة
— خطابه الثانى إلى أهل كورنثة
— خطابه إلى أهل غلطه (بفتح الغين واللام ، من مدن آسيا الصغرى)
— خطابه إلى أهل أفيسوس
— خطابه إلى أهل فيليبينه
— خطابه إلى أهل كولوسنيس
— خطابه الأول إلى أهل تساليا
— خطابه الثاني إلى أهل تساليا
— خطابه الأول إلى طيماوس
— خطابه الثانى إلى طيماوس
— خطابه إلى تيطس
— خطابه إلى فيلومون
— خطابه الثانى إلى القديس بوحنا
— خطابه الثالث إلى القديس يوحنا
— خطابه إلى العبرانيين
— خطابه إلى يهوذا
— نظرة عامة على الأناجيل الزائفة أى الأبوكريفيا

وهذه الخطابات تتضمن أفكار بولص التى انتهت إلى فصل المسيحية عن اليهودية وجعلها دينا قائما بذاته .

والحق إن بولص هو الذى صاغ المسيحية بصورتها الراهنة ، فهو الذى أوجد فكرة الثالوث ، وقال إنه يتألف من الله والابن — وهو عيسى عليه السلام فى رأيه — والروح القدس ، وإن هذه الثالثة تكون إلاها واحدا هو الله ولما كانت هذه أفكارا معقدة فقد بذل بولص جهدا عظيما ليوضحها ويثبت أن الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — نزل الأرض وأخذ صورة عيسى ابن مريم وقبض عليه اليهود وصلبوه على

الصليب حتى مات ، ولهذا أصبح الثالوث أساسا للمسحيية البولصية ، والمسيح نفسه حتى فى الأناجيل لم يقل بالثالوث ، ولا لو عرفه ، ولكنه كان يتحدث عن الله أحيانا بقوله « أبى» ومن هنا أخذ بولص فكرة أن المسيح ابن الله، وقد اختلف بولص مع كثير من الحواريين فى هذه النقطة وغيرها ومنهم مرقص منشئ الكنيسة المصرية وهى الكرازة المرقصية ويرنب صاحب الإنجيل المعروف لدينا وهو يعتبر عند النصارى من لابوكريفا وهى الأناجيل الزائفة فى رأيهم .

وبولص هو الذى صنع الكنيسة نفسها ، ولفظ الكنيسة باليونانية هو اكليسيا ومعناه جماعة المسيحيين، وبولص قال إن الجماعة المسيحية لابد أن يكون لها مركز مادى هو الكنيسة ، وهو الذى أنشأ كنيسة روما وقال إن الله اعتبرها وارثة السيد المسيح وإن رئيسها —وهو البابا— ينبغى أن يكون ملكا على الملوك جميعا ، ومن بولص أخذ أساقفه روما هذا الكلام وجعلوا أنفسهم بابوات وملوكا على الأرض ، وزورا خطابا زعموا أن المسيح كتبه بجعلهم به أصحاب روما ومسافة شاسعة من أرض إيطاليا ، وقد أثبت البحاثة الفرنسى « مابيون » أن هذا الخطاب زائف .

أقول هذا كله لكى يفهم القارئ عنى كل ما سأقول بعد ذلك لأننا نحن المسلمين لدينا القرآن الكريم ، وهو كلمة الله تعالى التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو خلفها أى فى أى شئ يتصل بالحاضر والمستقبل أو الماضى ، وأمر العقيدة واضح عندنا ولا يمكن أن يدخله ريب . والمسيحية عندنا هى مرحلة من مراحل تطور دين الله سبحانه من أيام سيدنا آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى وأخيه هارون ثم عيسى ثم محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل هؤلاء كانوا مسلمين ، ولا دين عند الله إلا الإسلام الذى يقوم على التوحيد الثابت لله سبحانه فلا أم له ولا أب ولا إبن وإنما هو الله خالق كل شئ . والمسلمون يقولون أنه ما دام دينهم واحدا وواضحا فكذلك غيره من الأديان ، وهذا غير صحيح ، فهناك مسيحيات مختلفة وكل منها دين قائم بذاته ، وكذلك هناك يهوديات مختلفة . ولا يدرك نعمة التوحيد إلا من يعرف هذه الحقائق .

* * *

ولما كان موضوع آدم وحواء وتحدى الشيطان لهما وإجراجهما من الجنة يعتبر أساسا من أسس الفكر التاريخى المعاصر على اعتبار أن الحياة على الأرض تحد وأن الإنسان معرض لهذا التحدى فى كل خطوة يخطوها ، على الأرض وفى كل عمل يقوم به لأن الشيطان آلى على نفسه أمام الله أن يتعقب الإنسان ويتدخل فى حياته وأعماله ليفسدها ، فقد اتجه ذهنى إلى استخدام موضوع آدم وحواء كما ورد فى القرآن الكريم

كموضوع قصصى حضارى هام وممتع وجذاب استطيع أن أجتذب به الشباب إلى قراءة القرآن وأعوده محبته والإقبال عليه .

والذى قال بنظرية الحياة على أنها تحد هو الكاتب الأنجليزى تشاوسر « Chaucsr » ولكن قصته بسيطة وغير جذابة بالصورة التى أريدها ، ثم جاء الأديب الألمانى « فولفجانج جوته » وكتب نفس القصة فى رواية فاوست « Faust » التى تعتبر العمل الأساسى الرائع الذى جعل هذا الأديب من أعظم أدباء الدنيا ، فقد روى قصة فاوست وصور التحدى فيها تصويرا بديعا يرينا حقيقة أن الإنسان فى هذه الحياة معرض لإغراء الشيطان وخداعه لإفساده ، فإن فاوست كان عالما مسنا وهب حياته للعلم ، وكان يقضى أيامه يقرأ ويكتب ويعيش بحياة صالحة فاتخذه الشيطان أو إبليس ، واسمه فى القصة مفيستوفيليس Mafistofilis ودخل عليه فى مكتبته وجعل يغريه ببنت جميلة تسمى هيلانة وقال له لافائدة من علمه السقيم هذا وأن حياته تضيع فى كلام لا يجدى وجهد تافه لا نتيجه له وأنه لو اتبعه وكفر بالعلم والحياة الصالحة فانه سيفتح له قلب هيلانة الجميلة ويرده شابا ، فيكفر بالله ويستمتع بالبنت ليجد فى النهاية أنه خسر حياته دون أن يكسب شيئا ذا قيمة ، وقد كانت حياته قبل ذلك هادئة جميلة وإن كانت مملة ولكنه الآن ضيعها وتحول إلى حطام ، وهكذا يكون الشيطان قد حقق إرادته وعبث بالإنسان كما قال :

وقد درس المؤرخ الإنجليزى ارنولد توينبى موضوع فاوست وقال إنه رمز على حياة الإنسان ، والإنسان الأوربى بصفة خاصة ، لأن الأوروبى يعتمد على الله حقا ولكن اعتماده على العقل عظيم ، والحياة عنده تحد دائم وتهديد بالفشل ، واذا كان التحدى فى الماضى هو تحد بالفساد والخروج عن طاعة الله فقد أضاف اليها فى أوائل القرن التاسع عشر تحديا جديد هو التحدى للنجاح ، فإن الإنسان اذا وجد على الأرض فعليه أن يعمل ويدرس وينجح ويغتنى ويتخلص من الفقر ، وعليه ان يدرس ليتخلص من الجهل ، ويدرس الطب ليتخلص من المرض ومن هنا أصبحت الحياة تحديا متصلا ، فالإنسان لابد أن ينجح فإذا لم ينجح استولى عليه الشيطان واذله وأفسد حياته ، ومعنى ذلك أن الإنسان أصبح أمام تحديين تحد اخلاقى دينى وتحد حضارى .

وكل جهد الإنسان على الأرض إنما هو استجابه للتحدى الحضارى لأن الإنسان لابد أن ينجح والنجاح يكون بالعمل ومحاربة ظروف الأرض والتغلب عليها وإلا

فلا معنى للحياة، ومن هنا فأن توينبى يسمى الحضارة الأوروبية حضارة فاوستية أى استجابة للتحدى ، وهذه الاستجابة ينبغى أن تكون إيجابية أى تقدمية ، وتقدمية معناها ناجحة ، فمن الناس من يواجه تحدى الحياة وينهزم أو لايقوم باى مجهود ، وهذه هى التى تسمى الاستجابة السلبية negative Response ومن الناس من يواجهه مواجهة ضعيفة فلا ينقصر ولا ينهزم ويظل مكانه وهذه هى التى تسمى استجابة لا معنى لها ولا فائدة useless Response وهناك من يواجهها مواجهة ناجحة فينتصر ويتقدم Progressive وهذه هى الأمم المتقدمة أو دول الدرجتين الأول والثانى The first and second worlds أما الدول المتأخرة وهى دول العالم الثالث The third world nations دول الدرجة الثالثة

وقد قرأت قصة خلق آدم وحواء وعبث الشيطان بهما وإخراجهما من الجنة فى أسلوب بسيط جدا لا يفهم معنى التحدى ولا فكرته فرجعت إلى القرآن الكريم فوجدته يقص القصة فى أسلوب أجمل بكثير مما هو فى الكتاب المقدس، فإن القصة مرسلة فى القرآن إرسالا قويا متماسكا يعطى حقا فكرة التحدى وتدخل الشيطان فى حياة آدم وحواء وهذا كله معروض عرضا جميلا جدا. حقا إنه يرد بنفس الأسلوب أحيانا فى أكثر من سورة ولكن له فى كل سورة معنى آخر يرتبط بالسياق لأن القرآن لا تكرار فيه قط ، فقد يورد نفس الآية فى سورتين فيخيل إلينا أنه يكرر ولكننا إذا نظرنا فى السياق والمناسبة وجدنا أن المعنى يختلف :

وقصة آدم وحواء وإبليس مقصوصة فى القرآن فى سور شتى ، فضيت أجمعها وأرتب فقراتها بعضها بعد بعض على نحو قصصى متماسك ، فوجدت نفسى أمام آيات من القرآن يحبها الصغار والكبار ويتذوقونها ويحسون حقا أن القرآن جميل، ثم إن القصة مروية بكامل تفاصيل التحدى بحيث إننا إذا قرأنا الآيات معا تبينا قصة التحدى بكامل عمقها وشمولها، وأنا هنا أفسر الآيات القرآنية لا تفسير الفقيه بل تفسير المؤرخ ، وهو يختلف عن تفسير الفقيه ولكنهما لا يتعارضان .

وفى النهاية عندما جمعت الآيات ورتبتها وربطها بعضها ببعض اجتمعت لى حكاية خلق الله سبحانه الأرض وآدم وحواء وتحدى إبليس ثم خروج آدم وحواء من الجنة على أجمل صورة :

وفيما يلى سأورد الآيات بحسب الترتيب الذى رأيته وسأعلق عليها بما أرى حتى تكتمل القصة أمام الشباب وغير الشباب ويزداد حبهم للقرآن وإقبالهم عليه .

ولما كانت قصة آدم وحواء موزعة فى سور كثيرة فى القرآن ، فساورد هذه الآيات فيما يلى مرتبة ترتيبا مترابطا كما رأيت،وسأتبع كل آياتة بالشرح والتعليق .

(١) سورة البقرة ٢٩/٢ :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شئ عليم ».

رأيت أن أبدأ بهذه الآيات من سورة البقرة وهى تقص قصة الخلق بصورة مختصرة جداً وهى مروية فى سورة أخرى بصور هى أكثر طولا وتفصيلا ، ولكنى رأيت أن آتى بهذه الآية نظرا لاختصارها وهى تشرح قصة الخلق فى الإسلام شرحا هو غاية الوضوح :

(٢) السجدة ٣٢ / ٩/٥ :

٦ — « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم .

٧ — « الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

٨— « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين»

٩— « ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

هذه الآيات غاية فى الجمال والعمق فهى تجمع حقائق كثيرة لابد أن يعرفها الإنسان عن الإسلام فان الله سبحانه يعرف الحاضر والمستقبل (فى هذه الآيات) وتكتفى الآيات فى مدحه سبحانه وتعالى بصفتين هما العزيز والرحيم لكى تدل على عظيم قوته ورحمته وهما صفتان متناقضتان إلا فى الله سبحانه فهو وحده القوى الرحيم ثم تقول الآيات « إن الله أحسن كل شئ خلقه » والمراد بقوله « أحسن» « أتقن » ومعنى ذلك أن الله أتقن كل شئ خلقه . ولما كان الله هو المثل الأعلى للاسلام فان إتقان العمل من الفضائل التى ينبغى أن يتوخاها المسلم، والعمل غير المتقن لامكان له فى الإسلام ولفظة أتقن مشتق من الإغريقية technes وهو الإتقان ، ومنه التكنولوجيا وهو العلم المتقن ويقال إن الله سبحانه خلق الدنيا فى ستة أيام ثم خلق التقن فى اليوم السابع .

ثم يقول : « وبدأ خلق الإنسان من طين» وهذا معروف علميا فإن أصل الإنسان من طين أو من تراب ،وخلق إبليس من نار ، وسنرى أثر ذلك فيما يلى من تفاصيل قصة آدم وحواء . وقد جعل الله نسل آدم من ماء مهين والمراد بذلك السائل الذى يخلق منه نسل الإنسان عندما يجتمع بالمرأة ، ثم يقول « ثم سواه ونفخ من روحه » .

ويفسرون نفخ الله من روحه فى الإنسان بأن الله نفخ فى الإنسان العقل ، وهو الميزة الكبرى والوحيدة كذلك للأنسان على غيره من المخلوقات . ولأن الله قد رزق الإنسان العقل فقد أصبح مسئولا عن أعماله لأنه يختار الطريق السليم بعقله كما نرى . أما غيره من الحيوانات والمخلوقات فتسير بالغريزه والله سسبحانه وتعالى يرزقها لأنها دواب لاعقل لها بل غريزة . ويخطئ كثير من الناس عندما لا يعملون ويقولون إن الله لابد أن يرزقهم مادام يرزق كل دابة على الأرض، ونحن نقول له إن الله يرزق الدابة لأنها دابة بلا عقل ، أما الإنسان فمخلوق له عقل ، والله سبحانه وتعالى هو الذى نفخ فيه هذه الروح بعد أن سواه ، أى بعد أن أتم خلقه . ثم رزقه السمع والإبصار لكى يرى طريقه ويسمع الأصوات ويميز قبل أن يختار . أما الأفئدة فالمراد بها العقول وهى فى القرآن أيضا « القلوب» والقلب هو العقل وهو الذهن الذى يميز به الأشياء ويتحمل مسئولية أعماله : .

* * *

(٣) — البقرة ٢/٣٠ — ٣٨ :

٣٠ « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . »

٣١ « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »

٣٢ « قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

٣٣ « قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

وهذه الآيات واضحة المعانى وليس فيها ما يستحق الشرح إلا أن الله عندما علم آدم الأسماء كلها أراد بذلك أنه علمه كل اللغات وكل المعلومات اللازمة له فى الحياة .

ونريد هنا أن نقف لحظات عند قول الله « إنى جاعل فى الأرض خليفة » فما المراد بخليفة ؟ بعض المسلمين يرون أن المراد بذلك أن الله جعل الإنسان سيد الأرض وأنه خلق خيراتها كلها له، وهذا غير صحيح فالخليفة معناه مخلوق له عقل لكى يستفيد من خيرات الأرض جميعا . وإلا فهل يعقل أن يعهد الله فى الأرض إلى الإنسان هذا المخلوق الضار المفسد الذى أفسد الأرض كما ترى ، فليس فى مخلوقات الله من يعرف الحرب أى القتل الجماعى إلا

الإنسان ، وليس فى المخلوقات من اخترع المفرقعات والديناميت والقنابل والرصاص والمدافع والقنبلة النووية والهيدروجينية إلا الإنسان . فكيف يكون الإنسان بهذا الشر ثم يقال إن الله سبحانه جعله سيد الأرض وصاحب كل ماعليها وسيد كل من عليها ؟

٣٤ — « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

٣٥ — « وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٣٦ — فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه .

وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوا لكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٣٧ — فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ — (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .

وبعد أن عصى آدم ربه وأكل من الشجرة التى حرم الله عليه الأكل منها أخرجه الله من الجنة وأهبطه إلى الأرض . ولكنه تاب عليه ، أى إن الإنسان فى الإسلام لايحمل مسئولية خطأ جده آدم ، وليس عليه أن يقضى عمره يكفر عن هذا الذنب ولاينبغى عليه — كما قرر الرسول بولص — أن يحصل على التوبة على يد قس من الكنيسة ، فإن الكنيسة لاتغفر الذنوب ، والله وحده هو الذى يغفر الذنوب .

وهذا القول بالخطيئة الأزلية هو من مبتكرات بولص فقد أراد أن يقيم دولة الكنيسة ويجعل لها سلطانا على الناس فأنشأ هذه الدولة وجعل قوتها فى هذا الغفران الذى يقوم به القساوسة بعد اعتراف الإنسان بذنبه .

وفى الآية السابعة والثلاثين من سورة البقرة نجد الله سبحانه وتعالى يأمر آدم وأولاده أن يهبطوا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو ، والعداوة جزء من طبيعة الحياة على الأرض ، فنحن نرى أن الإنسان تحول أولا إلى حيوان ، وقل إن العنصر الحيوانى فى طبعه استيقظ فيه عندما أخطأ وأخرجه الله من الجنة فأحس آدم أنه ذكر وأحست حواء أنها أنثى وطفقا يخصفان على سوءاتهما من ورق الشجر . ثم هبطا إلى الأرض وقد حلت العداوة فى قلبيهما ، وستحل فى قلوب أبنائهما لأنها عنصر من عناصر الحياة على الأرض أما فى الجنة فلم يكن هناك صراع على البقاء ولا عداوة .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يتتبع حكاية آدم وحواء وتطورهما بغاية الدقة مرحلة بعد مرحلة .

(٤)(طه ٢٠ / ١١٥ ÷ ١٢٧ :

١١٥ — (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما)

١١٦ — (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) .

١١٧ — (فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) .

١١٨ — (إن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى)

١١٩ — (وأنك لا تظلم فيها ولاتضحى)

١٢٠ — (فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى) .

١٢١ — (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهمامن ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى) .

١٢٢ — (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

١٢٣ — (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى) .

١٢٤ — (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

١٢٥ — (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا (:

١٢٦ — (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

١٢٧ — (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وابقى).

فهذه آيات أساسية بالنسبة لموضوعنا ، فنحن نرى فى أولها مصداقا لما سبق أن قلناه من أن آدم لا يمكن أن يكون سيد هذه الأرض وصاحبها ، فها هو الله يقول : إنه عهد إلى آدم فى الأمانة فنسى ولم يجد له عزما ، وبهذه الصورة لا يمكن لآدم أن يظل صاحب ثقة الله سبحانه ، ومادام قد نسى ولم يجد الله له عزما فقد فقد مكانته وأصبح مخلوقا مثل غيره . ولم ينتفع بجوهرة العقل التى أهداه الله إياها . و هذا بدوره يؤيد ماقلناه من أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الأرض لآدم وأولاده لكى يستمتعوا بخيراتها ويتصرفوا فيها ، بل خلقها لكل مخلوقاته على سواء .

* * *

(٥) الأعراف ٧ / ١٠ — ٢٧ :

١٠ — ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون .

١١ — ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

١٢ — قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين .

١٣ — قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين .

١٤ — قال أنظرنى إلى يوم يبعثون .

١٥ — قال إنك من المنظرين .

١٦ — قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

١٧ — ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين .

١٨ — قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .

١٩ — ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٢٠ — فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال: مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

٢١ — وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين .

٢٢ — فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين .

٢٣ — قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

٢٤ — قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٢٥ — قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .

٢٦ — يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون .

٢٧ — يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون .

وهذه الآيات شاملة جامعة، وهى تقص علينا جوانب جديدة من قصة آدم وحواء وإبليس ، وتحدى هذا الأخير للإنسان وتحذير الله سبحانه وتعالى للأنسان من الشيطان . وفى الآيات تكرار لبعض ما سبق ولكنه تكرار لفظى فقط لأن المعانى هنا تختلف عنها فى الآيات الأخرى المشابهة .

ففى الآية الأولى من هذه ، وهى الآية العاشرة من سورة الأعراف يقول الله جل وعلا إنه بعد أن خرج آدم وحواء من الجنة بفعل إبليس نزلا إلى الأرض بعد أن أصبحا مخلوقين أرضيين أى حيوانين فيهما الغرائز وطبائع الصراع للحياة وللبقاء ومكن الله لهما معايشه أى سبيلا للعيش لعلهم يشكرون مع أن الإنسان بطبعه غير شكور .

ثم يعيد الله سبحانه قصة خلق آدم وحواء وإعطائه إياهما هذه الصورة التى هما عليها . ويلاحظ هنا أن القرآن لايقول إنه صور الإنسان على صورته سبحانه كما تقرأ فى الكتاب المقدس ولكن على الصورة التى اختارها لهما ، لأن الله سبحانه وتعالى ليست له صورة معينة فى الإسلام فهو سبحانه لايشبهه شىء ومن ثم فلا يمكن القول بأن آدم صور على صورة الله ففى هذا مساس بالسمو الإلهى والوحدة الربانية .

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم والسجود هنا ليس للعبادة بل معناه مجرد الاعتراف بامتياز الإنسان لأن الله منحه العقل دون أن يكون فى ذلك أى سيادة من الإنسان على غيره من المخلوقات إذ أنه لاسيادة فى الكون إلا الله .

وفى الآية رقم اثنتى عشرة نعرف السبب الذى جعل إبليس يرفض الاعتراف بامتياز آدم عليه ، وهو أن الله خلق آدم من طين وخلق الشيطان من نار ، والنار فى رأى إبليس أشرف من الطين ، ولا أساس لذلك من الصحة إنما هو غرور الشيطان بنفسه .

وهنا أخرجه الله من الجنة فلا يجوز له أن يبقى فى الجنة وهو على هذه الكبرياء وهنا نجد كيف بدأ التحدى بين إبليس وآدم ، فإن الله أمر إبليس بأن يخرج من الجنة ومن الأرض : ولكنه سأل الله أن ينظره إلى يوم البعث فشاءت إرادة الله أن يبقى لكى يكون فى ذلك اختبار للإنسان، وبقاء الشيطان إلى جانب الإنسان فى الحياة واجتهاده فى إفساد أمر الإنسان والوسوسة إليه بالشر هى التى كانت سببا فى التحدى فمن ذلك الحين أصبح الإنسان فى موقف تحدى . الشيطان يريد أن يوقعه فى الشر ويفسد حياته ، والإنسان لابد أن يثبت ويتنبه إلى حيل الشيطان ويقاوم الفساد .

وكان التحدى مقتصرا فيما مضى على التحدى الأخلاقى وضرورة محافظة الإنسان على نفسه من الوقوع فى غضب الله ، كما حدث لجده آدم ، ولكن الأوروبيين من أوائل القرن التاسع عشر ابتكروا فكرة التقدم أى إن الإنسان ينبغى أن يعمل لكى يكون فى غده خيراً من يومه، وهذه هى فكرة التقدم the idea of progress

ولم يكن الماضون يعرفونها ولكنها أصبحت أساس الحياة فى عصرنا، فلابد أن يعمل الإنسان ويتعلم لكى يتقدم وإذا لم يعمل لم يتقدم وظل متأخراً وهذا هو أساس مانراه اليوم من وجود عالم أول first world وهو العالم الغربى الرأسمالى الغنى ، والعالم الثانى second world وهو العالم الشيوعى وهو عالم قوى ومتقدم أيضا

رغم شيوعيته ، ثم العالم الثالث Third World وهو العالم المتأخر الذى نسميه من جانب الذوق والأدب بالعالم المتقدم أى الذى يتقدم The progressive world ونحن نتقدم فعلا ولكن فى بطء .

ونرى هنا أن الله سبحانه وتعالى يحذر الإنسان فى نهاية هذه الآيات من الشيطان الذى أخرج جده آدم من الجنة . ويلاحظ أن الله ينبه هنا إلى أن الشيطان عندما أخرج آدم وحواء من الجنة كشف فى نفس الوقت جنسهما لكى يصبحا مخلوقين من مخلوقات الأرض ، لأن آدم وحواء لم يكونا يشعران بالجنس فى الجنة لأن البقاء فى الجنة خالد دون جنس ، أما عندما هبط الإنسان إلى الأرض فكان لابد له من المحافظة على نوعه بالجنس فأحس آدم أنه رجل وأحست حواء أنها امرأة وأصبح هذا الجنس من متاعب الإنسان فى حياته الأرضية . وقال الله إن الشياطين يعيشون مع البشر على الأرض ولكن البشر لايرونهم فى حين أن الشياطين يرونهم وهنا يمكن أن نفترض أن الميكروبات التى تصيب البشر وتقتلهم ربما كانت فى جملة الشياطين .

(٦) الإسراء ١٧ / ٦١ — ٦٩ :

٦١ — (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا .

٦٢ — قال (الشيطان) أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا .

٦٣ — قال (الله سبحانه وتعالى) اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا .

٦٤ — واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا :

٦٥ — إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا .

٦٦ — ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما .

٦٧ — وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا :

٦٨ — أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا .

٦٩ — أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا :

٧٠ — ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم

على كثير ممن خلقنا تفضيلا .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه يتم التحدى فيطلق للشيطان الحرية فى أن يفعل بمن اتبعه مايريد ، فهو يستطيع أن يستفز من استطاع أن يستفزه منهم بصوته ويجلب عليهم بكل قوته ، بل يستطيع أن يشاركهم فى أموالهم وأولادهم ويعدهم بما يشاء والشيطان لايعد الإنسان إلا بالغرور .

أما عباد الله المخلصون فلاسبيل للشيطان عليهم لأن وكيلهم هو الله سبحانه وكفى به وكيلا .

ثم يعطينا الله صورا من أفضال الله على البشر ، فهو الذى يجعل لهم الفلك ليركبوها فى البحر ليبتغوا من فضله إنه كان بهم رحيما، وإذا مسهم الضر فى البحر فلن ينفعهم إلا الله سبحانه . ولكن يحدث أن الله بعد أن ينجى الإنسان من الموت فى البحر ويوصله إلى البر أن يعود الإنسان إلى كفره وينسى فضل الله ويعرض عنه لأن الإنسان كفور .

وفى آخر هذه الآيات البليغة العميقة المعانى يذكر الله فى الآية ٧٠ أنه كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات ثم يقول الله سبحانه إنه فضل بنى آدم على كثير ممن خلق تفضيلا . ولم يقل إنه فضل بنى آدم على كل من خلق وهذا يؤكد المعنى الذى قلناه فيما سبق أن الإنسان ليس أفضل الخلق جميعا ومن ثم فلا يمكن أن يكون الله قد جعل خيرات الأرض كلها له وحده فهو ليس أفضل ماخلق الله .

* * *

(٧) البقرة ٢ / ٣٧ – ٣٩ :

٣٧ – فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ – قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم لا هم يحزنون .

٣٩ – والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

هذه الآيات من أدل الآيات على طبيعة الإسلام وامتيازه على غيره من الأديان فإن الله تاب على آدم بعد أن أخطأ ، تاب عليه قبل أن يهبط إلى الأرض .

فهبط دون خطيئة ، ولا تزر وازرة وزر أخرى : هذا ونحن نعرف أن الإنسان فى المسيحية هبط إلى الأرض بخطيئته بحسب ماقال بولص . وكان على الإنسان أن يكفر عن توبته أو يخلص نفسه منها بين يدى القساوسة : وهذا هو الذى أعطى للكنيسة هذه القوة الكبيرة على الأرض فى حين أن الإنسان فى الإسلام حر تمام الحرية ، فمن الناس من يأته هدى الله فينعم به ولاخوف

عليه ولاهم يحزنون . أما الذين يكفرون بنعمة الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

* * *

(٧) الإعراف ٧ / ٢٦ :

٢٦ — (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) هذه آية ذات معان حضارية عظيمة حقا فإن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض وجعله مخلوقا أرضيا وأراه سوأته وسوأة امرأته حواء . وكانا قبل ذلك لايعرفان الجنس ، ولايشعران به فى الجنة وعلم الله آدم كيف يصنع الكساء من أشياء شتى منها الريش ولكن أعظم لباس للإنسان هى التقوى أى الخوف من الله ومراعاته ، وذلك هو الستر الحقيقى للإنسان فى حياته على الأرض هى التقوى أى مراعاة الله والخوف منه .

* * *

(٨) الأعراف ٧ / ٣١

٣١ — يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

٣٢ — قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنو فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .

ونحن نرى هنا كيف أن الله يرسم للإنسان حياته الحضارية على الأرض فإن الله يأمر الإنسان بأن يأخذ زينته عند كل مسجد أى عند كل مكان يقيم فيه الصلاة والله سبحانه يدعه حرا فى أن يأكل ويشرب ما يشتهى إلا المحرمات لأنها كلها ضد صحة الإنسان وحياته. والله سبحانه يأمر الإنسان ألا يسرف فى الأكل أو الشرب لأن الله لا يحب المسرفين :

ولما كان اليهود يحرمون على الناس الكثير من الأطعمة فإن الله سبحانه يدع الإنسان حرا يأكل مايريد مما خلق الله ويلبس مايشاء، لأن كل خيرات الدنيا هى لمخلوقاته أجمعين وخاصة البشر الذين آمنوا بالله فى الحياة الدنيا وكلها خالصة له حتى يوم القيامة .

* * *

(٩) الأعراف ٧ — ١٧٢ :

١٧٢ — وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين :

١٧٣ — أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون .

١٧٤ — وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه وضع نظام تناسل بنى آدم على الأرض وأشهدهم على أنفسهم أنه عرفهم أنه ربهم وذلك حتى

لايدعوا يوم القيامة أنهم لم يتنبهوا إلى ألوهية الله سبحانه وواجب عبوديتهم له . وهذا التنبيه صحيح متصل فى الأجيال كلها فلايجيء جيل يقول إننا كنا جيلا جديدا لم يبلغنا خبر الإله وواجبنا نحوه . وهذا هو الالتزام الخلقى للإنسان فى هذه الدنيا وهو نعمة أنعم بها الله عليه فى مقابل غفرانه ذنب خطيئته فى الجنة .

* * *

١٠ ــ سورة التين ٩٥ :

١ ــ والتين والزيتون .

٢ ــ وطور سينين

٣ ــ وهذا البلد الأمين

٤ ــ ٥ ــ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين .

٦ ــ إلا اللذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

٧ ــ فما يكذبك بعد بالدين :

٨ ــ أليس الله بأحكم الحاكمين .

هذه السورة القصيرة من أهم مايقرأه المؤرخ الذى يخشى أن يكون هناك تناقض بين مافى القرآن الكريم وما يقول به التاريخ من تطور الإنسان على الأرض وارتقائه مراحل التطور فيجد فى هذه السورة القصيرة أنه لاتناقض إطلاقا وأن القرآن الكريم يؤيد ماتقوله أبحاث التاريخ .

فالسورة تبدأ بالقسم بنباتين من نعم الله سبحانه على الإنسان وهى التين والزيتون، والتين حلو ، والزيتون مر ، ولكنهما يؤكلان ولكل منها طعم جميل وفائدة عظيمة وهم ينبتان فى نفس المكان .

ثم يقسم الله بطور سينين وهو الجبل الذى تحدث الله إلى موسى عليه السلام وهو عليه .

ثم يقسم بذلك البلد الأمين وهو مكة مستقر الحرم الإلهى ثم يقول إنه سبحانه خلق الإنسان فى أحسن تقويم عندما كان فى الجنة فكان هناك فى أحسن تقويم ثم خالف الإنسان ربه فعاقبه بالإخراج من الجنة وتحول إلى مخلوق أرضى مثله فى ذلك مثل أى حيوان آخر ، أى الإنسان ــ بحسب هذه الآية بدأ على الأرض من أسفل سافلين بدأ حيوانا عليه أن يكافح على الأرض ليحافظ على وجوده ثم يرتقى نتيجة للكفاح . وهؤلاء الذين يرتقون ثم أولئك الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات أى ساروا على الطريق الأخلاقى الذى رسمه الله فيجازيهم الله عن ذلك أحسن الجزاء ، وهذا معنى : فلهم أجر غير ممنون .

ثم تتساءل الآية عما إذا كان من الممكن بعد هذا أن يكذب الناس محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من دين .

وهذا كله يدل على أن الله هو أحكم الحاكمين .

* * *

(١١) سورة البلد ٩٠/٦ ــ ٢٠ :

٦ ــ يقول أهلكت مالا لبدا .

٧ ــ أيحسب أن لم يره أحد .

٨ — ألم نجعل له عينين ؛

٩ — ولساناً وشفتين ؛

١٠ — وهديناه النجدين ؛

١١ — فلا اقتحم العقبة ؛

١٢ — وما أدراك ما العقبة ؛

١٣ — فك رقبة ؛

١٤ — أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ؛

١٥ — يتيماً ذا مقربة ؛

١٦ — أو مسكيناً ذا متربة ؛

١٧ — ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ؛

١٨ — أولئك أصحاب الميمنة ؛

١٩ — والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة.

٢٠ — عليهم نار مؤصدة ؛

وهذه الآيات تكشف لنا عن سر الخير فى هذه الحياة الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى هدى الإنسان النجدين أى فتح أمامه الطريقين طريق الخير وطريق الشر طريق الفضيلة وطريق الرذيلة، طريق الجنة وطريق النار ليختار منهما ما يختاره بعقله الذى أهداه إليه الله ، وهذا يرينا كيف أن الإنسان — لأنه عاقل — مسئول عن كل أعماله :

وقد أهداه الله عينين ليرى بهما ولساناً وشفتين ليتكلم لكيلا يقول بعد ذلك إنه لم يرزق الوسائل التى تمكنه من الرؤية والفهم والتمييز بين الخير والشر وطريق كل منهما . ومن هنا فان الإنسان لا يستطيع أن يقول إنه أهلك مالاً كثيراً فى الشر ، فهل يحسب أن أحداً لم يره ؟ هذا وَهْمٌ لأن الله سبحانه وتعالى يراه ويرى كل ما يفعل ؛

فإذا فكر الإنسان واختار طريق الصواب اقتحم بذلك العقبة إلى الجنة من بين الأعمال التى يستطيع الإنسان أن يفعلها لكى يكون مطمئناً إلى أنه يسير فى طريق الرضا. وفك رقبة أى المعاونة على إطلاق سراح إنسان مسكين وقع فى الأسر والعبودية ، أو إطعام فى يوم جوع عام يتيماً قريباً منه أو مسكيناً فقيراً ذا متربة وكان بعد ذلك من الذين آمنوا بالله واتفقوا فيما بينهم على الصبر واتفقوا على معاملة غيرهم من البشر بالرحمة وأولئك هم أصحاب الميمنة أى أصحاب الجنة أما الذين خالفوا الطريق وساروا فى طريق الشر فهم أصحاب الشؤم وأهل النار يدخلون النار وتوصد أبوابها عليهم .

* * *

وهكذا نصل إلى نهاية هذه الدراسة عن قصة آدم وحواء فى القرآن الكريم ، تتبعناها عبر آيات كثيرة تكمل القصة وترينا كيف أن الإنسان من يوم كان فى الجنة وهو فى موقف تحد من الشيطان الذى يجتهد فى أن يفسد حياة الإنسان ويضله ، ثم هناك التحدى الآخر وهو تحدى العمل للتقدم والاهتداء إلى طريق الخير والحضارة والتقدم .

حسين مؤنس
عضو المجمع